أمير النقاد الروسيين

تاريخ الأمم يفسر لنا الكثير مما يستسر علينا أمره فى حاضرها ، ويمتاز تاريخ روسيا فى العصر الحديث بترددها بين نزعتين متناكرتين ، نزعة العزلة ومجافاة الغرب والتنكر له ، والتمرد على نظمه ، ونبذ مظاهر حضارته ، ونزعة الاعتماد على الغرب ، والإقبال عليه ، وإيثار حضارته ، والأخذ بها والعمل على محاكاة مظاهرها .

والنزعة الأولى تعتز بالعبقرية القومية ، وتستمسك بتقاليد الحياة الروسية ، والنزعة الثانية ليست أقل إخلاصاً للوطن وحرصاً على النهوض به وتحسين أحواله من النزعة الأولى ولكنها مع ذلك ترى الإفادة جهد الطاقة من حضارة الغرب ، وتحاول التفوق عليه وسبقه عن طريق استعمال أساليبه واستغلال حضارته .

وقد اشتد فى القرن التاسع عشر النزاع بين أنصار هذين المذهبين فى الروسيا وهذا النزاع بين المذهبين المتناقضين يفسر لنا ما نلمحه من التناقض العجيب فى السياسة الروسية بين الإقبال على الغرب والإعراض عنه ، والاقتراب منه ثم الابتعاد عنه .

وكان من أشد المتحمسين للأخذ عن الغرب الناقد الروسى الكبير فيساريان جريجور فتش بلنسكى ، وكان يلقب « بفيساريان الحرد » لأنه كان حمى الأنف سريع الغضب جوالا فى المعارك الأدبية ، ومجادلا لاتلين قناته ، وقد توفى بلنسكى فى ٢٦ مايو سنة ١٨٤٨ وهو فى السابعة بعد الثلاثين من عمره ، وبالرغم من مضى أكثر من مائة سنة على وفاته فإن اسمه لم ينس ، وتأثيره لم

يذهب ومكانته الرفيعة فى الأدب الروسى تشبه مكانة الناقد الكبير لسنج فى الأدب الألمانى ، والناقد العظيم سانت بيف فى الأدب الفرنسى . وقد تأثر الأدب الروسى بآرائه وتوجيهاته إلى حد بعيد .

وقد ولد بلنسكى فى يونيو سنة ١٨١١ فى سفيابورج ، وكان أبوه طبيباً رقيق الحال يعمل فى الأسطول الروسى ، وقضى أيام طفولته بمدينة صغيرة فى مقاطعة بنزا ، وبعد أن تلقى مبادئ الدراسة فى المدارس المحلية التحق بجامعة مسكو فى سنة ١٨٢٩ وتركها بعد ثلاث سنوات دون أن يحصل منها على إجازة ، ولكنه اطلع فى أثناء ذلك على الفلسفة الألمانية مترجمة إلى الروسية ، وقرأ الكثير من الشعر والدراما ، ويظهر أن سوء حالته الصحية وضعف بنيته منعاه من الحصول على وظيفة فى الحكومة ، فكان يتبلغ بإعطاء بعض الدروس الخصوصية والفقر لا ينفك ينوشه ويقرع مروته ، ولكن الفقر وسوء الصحة لم يستطيعا أن يقهراه ويفلا من عزمه ويكسفا عبقريته ، فلم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا الشاب الهزيل السقيم طريد الجامعات وطلبة الفقر قطباً من أقطاب الحركة الفكرية فى مسكو ، وناقداً مسموع الكلمة ، مرهوب السطوة ، يأتم به المؤلفون ويعنى بآرائه الشعراء والفنانون .

ويعد بلنسكى المنشئ الحقيقى للنقد الأدبى الروسى بالرغم من أنه لم يكن من أساتذة الجامعات ولا من الأرستقراطية المولعة بالأدب . وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد توفر على المطالعة والدرس والبحث والكتابة ، معتمداً على نفسه لا يستعظم غيرها ولا يقبل حكماً لسواها ، ورغم اعتلال صحته المتزايد وشدة الرقابة على الصحف والمجلات فى روسيا أمكن بلنسكى أن يؤثر فى سير الأدب الروسى تأثيراً بعيد المدى ، وقد نشأ كبار الروائيين الروسيين فى كنف رعايته وفى ظلال تأثيره .

وقد بدأ بلنسكى حياته الأدبية بكتابة فصول شديدة اللهجة نعى فيها على الروسيين فقرهم الأدبى ، وكان فى هذه المرحلة من مراحل حياته الأدبية متأثراً بأفكار الفيلسوف الألمانى شلنج ، ومن أقواله فى أحد تلك الفصول «إن هذا العالم الجميل غير المحدود بقضه وقضيضه ليس سوى نسمة لفكرة خالدة فذة ، وهى فكرة الإله الحى الدائم التى تنكشف فى مظاهر لا يأخذها العد كرؤيا رائعة باهرة للوحدة المطلقة فى التنوع الذى لا نهاية له ، والمظهر الأخلاقى لهذه الفكرة الخالدة هو المعركة الناشبة بين الخير والشر ، والحب والأثرة ، وبدون هذه المعركة لا تظهر الصفات المحمودة ، وبدون ظهور تلك الصفات المحمودة لا سبيل للجزاء والمثوبة ، ولا حياة بغير عمل ، فما هو مصير الفن وغايته ؟ إن تصوير حياة الطبيعة وإعادة إنشائها هو غرض الفن الأبدى ، والإلهام الشعرى هو انعكاس قوة الطبيعة الخالقة ، وما دام الشاعر يتبع فى حرية وطلاقة ومضات خياله فهو ملتزم شريعة الأخلاق غير خارج على عمود الشعر ، ولكنه حينما يعمد إلى غرض خاص ويفرض على نفسه شيئا فإنه يصبح فيلسوفاً ويغدو أخلاقيًّا ، ولكنه يفقد قوته الساحرة الآسرة وسيطرته على نفسى ، وإذا كانت له مواهب صادقة ، وكانت له كذلك أهداف معينة فإنه يفسد على متعتى ، وإذا حاول أن يجعلنى أتعثر فى طائفة من الأفكار الضارة فإنه يرغمنى على احتقاره وإهمال شأنه» .

وفى نفس هذا المقال عرض بلنسكى لمسألة الفن والقومية فقال «كل أمة من الأمم لا مناص لها من أن تظهر فى حياتها جانباً خاصًّا من جوانب حياة الإنسانية جمعاء ، وهى مدفوعة إلى ذلك دفعاً بقانون من قوانين الطبيعة لا مرد لحكمه ، والأمة التى لا تضطلع بهذه المهمة لا تحيا حياة حقيقية وإنما تعيش عيشة بلادة وخمول ولا فائدة على الإطلاق من وجودها» .

وهذه هى آراء بلنسكى فى المرحلة الأولى من مراحل حياته الأدبية ، وكانت معظم الفصول التى يكتبها تدور حول فكرتين ، الفكرة الأولى هى أن غاية الشعر هى تجسيم الأفكار الخالدة فى رموز الفن ، وأن الإنتاج الفنى صادق الشاعرية ما دام الشاعر يخلق فى حرية وطلاقة ، فلا يتكلف شيئا ولا يعتاقه شىء . والفكرة الثانية هى أن الأفكار التى يعبر عنا الشاعر هى أفكار الأمة التى نبغ فيها والعصر الذى عاش به ، وكان يعارض فى أى ضغط يوجه إلى حرية الفنان ويمقت أى لون من ألوان التكلف يلمح أثره فى الشعر ، وقد زعم أن الشاعر الروسى بوشكن كان أصدق قومية وأصح شاعرية حينما كان يخلص فى الاستجابة لوحى نفسه ونجوى عواطفه وتاثراته ، وأنه كان ينزل عن مستواه ويضل الطريق حينما كان يعمد إلى محاكاة القصص الشعبية ، لأن التقليد يرهق نضارة الفن ، ويذهب بحريته ، والفن الخالص هو الفن القومى .

وما اقترب حلول سنة ١٨٣٧ حتى كانت آراء بلنسكى قد طرأ عليها شىء من التغيير ، وقل تأثره بفلسفة شلنج ، وأخذ يحل محلها من نفسه تيار جديد وجد سبيله إلى الحياة الفكرية الروسية بالتدريج ، فقد تأثر بلنسكى وأصدقاؤه بفلسفة هجل ، وأصبح بلنسكى هيجليًا لفظاً ومعنى ، وبدأ يكتب فى مجلة « ممتحن مسكو » ودافع فى تلك المجلة عن مبدأ هجل المعروف وهو أن كل شىء موجود معقول ، واستخلص من هذه الفكرة أن من واجبات الإنسان ألا يتسخط الحاضر بل يعمل على التوفيق بين نفسه وبين عصره .

وصار يميل إلى ناحية المحافظين ، ويرى عبث المعارضة ، ويكره الجوانب السلبية فى الحياة البشرية ، ويكبر فى الفن تأمل الحياة الهادئ الموضوعى ويعده أعظم واجبات الشاعر ، وكان يعد الإنتاج الأدبى فنًا حينما يظهر الفنان تصوراً للحياة موضوعيًا نزيهاً يمثل صلة وثيقة بين الفكرة المراد تصويرها والصورة التى

تتخذها تلك الفكرة ، ويجب أن تستوعب الصورة الفكرة .

وفى نقده لأحد الكتب فى سنة ١٨٣٨ كتب يقول : «إن الشرط الرئيسى للإنتاج الشعرى هو أن يكون وصفاً لشىء معين ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا نفذت الفكرة خلال الصورة وشفت الصورة عن الفكرة ، فإذا انهدمت الفكرة تقوضت معها معالم الصورة ، وإذا تطرق الفساد إلى الفكرة تسلل منها إلى الصورة ، ومعنى ذلك أن الشىء المعين هو الرباط العجيب الذى لا تفصم عروته بين الفكرة والصورة ، ومنه تتكون الحياة العامة ، ولا حياة لأحدهما بدونه ، ويصدق هذا بخاصة فى الطرف الفنية ، فالقطعة الموسيقية لها فكرة وحياة . وهذا هو سر تأثيرها فى الروح الإنسانية ، ولها كذلك أصوات تتكون منها صورتها ، فإذا ذهبت الأصوات أصبحت القطعة الموسيقية ليس لها وجود ، وكل عمل من أعمال الفن يكون فنيًّا حينما يقوم على قانون الضرورة والحتمية . وحينما لا يكون هناك أى أثر للتعمد والقصد فى إنجازه ، وحينما لا يكون هناك مجال لوضع كلمة مفردة أو صوت واحد بدل لفظ أو صوت ، والإنتاجات الفنية الصادقة لا يجىء فيها شىء من قبيل المصادفة والاتفاق ، ولا يكون بها شىء لا لزوم له ويمكن الاستغناء عنه ، وكل ما فيها لازم محتوم وموضوع فى مكانه المناسب وموقعه الصحيح المقدور» .

وليس المهم فى الفن الفكرة وإنما المهم هو الصورة ، ويجب أن ينفذ خلالها شعاع الجمال اللين الهادئ . وعظمة الفكرة لا تدل بحال على جمالها الفنى ، بل على النقيض من ذلك قد تجعله موضع شبهة .

وتشدد بلنسكى فى الدفاع عن رأية القائل بأن الفن الصحيح هو الفن الذى تمتزج فيه الفكرة بالصورة حتى تصبحا شيئاً واحداً جعله فى بعض الأحيان شديد التزمت فى تقديراته الفنية ، وقد انتقص بعض أشعار شلر الجديدة لأن

الفكرة التى عبرت عنها تجاوزت حدود الصورة ، واعتقاده بأن الفن هو إعادة نزيهة هادئة للانسجام فى الطبيعة بدون أى عنف فى الصورة جعله يمدح كل ضروب الفن الموضوعى ، ويرفض كل الألوان الأدبية الأخرى مثل الهجاء ، فهو لا يعتبرها فنًا لأنها تظهر مشاعر الألم والغضب والتفجع ، وهى مظاهرتنا فى الهدوء الأولمبى الذى يجب أن يحتفظ به الفنان .

وقد انصف بلنسكى شلر الإنصاف كله ، ولكنه كان يضع جيتى فى مكان أسمى منه ، ومن أقواله فى ذلك « الموضوعية من حيث هى شرط لازم للفن لا تحتمل وجود أى هدف أدبى ، ولا ترتضى أى حكم للفنان على عمله ، والشاعر الحق حينما يصور نقائص البشر لا ينظم الأهاجى لأنها بعيدة عن منطقة الفن ، وحينما يصف مرتكبى الكبائر الأخلاقية لا يفعل ذلك وهو ملتهب الغضب كما يظن بعض الناس ، فمن غير الميسور أن يكون الإنسان محتدم الغضب ومخلق فى الوقت نفسه ، فالغضب يفسد المزاج ويسمم الابتهاج على حين أن وقت الوحى الشعرى – على نقيض ذلك – هو وقت أسمى حالات الطرب ، والشاعر لا يستطيع أن يمقت صورة مهما كانت قبيحة شوهاء ، بل هو – على خلاف ذلك – يحبها لأنه يتصورها أفكاراً خالصة نقية » .

وفى سنة ١٨٣٩ انتقل بلنسكى من مسكو إلى بطرسبرج ، واشترك فى تحرير مجلة « سنوات أرض الوطن » فأثر هذا الانتقال فى تطور تفكيره ، وأخذت أفكاره عن الفن تتغير وتهبط من سماوات التجريد إلى أرض الحقيقة والواقع ، وهجر المثالية التى استمدها من فلسفة هجل ، وأصبح يدخل فى حسابه وتقديراته حاجات الحياة الواقعية ؛ ومن بعد ما كان فى طليعة أنصار فكرة الفن للفن أصبح من أكبر رسل فكرة الفن للأغراض الواقعية ؛ وكانت هذه هى

المرحلة الثالثة فى حياته الأدبية ، وهى فى رأى نقاد بلنسكى أخصب مراحل حياته .

وقد بدأ يكتب فصولا انتقادية عن الكتاب الروسيين ، وقد أعلن فى أحد تلك الفصول انتهاء عصر الرومانسية » وأكدأنه امتياز تستمتع به الأمم فى مقتبل شبابها ، حينما يتراءى الشعر فى بخور الصلاة وأنات الحب المنتصر أو فى مواقف الوداع ، وأن الشعر الجديد هو شعر عهد اكتمال الرجولة ، فهو يحقق جمال الصورة ، ويفتح أبواب معبد الروح المقدس فى الواقع لا فى الرؤيا الحالمة . وموجز القول أن الشعر الرومانسى هو شعر الحلم والتطلع الغامض فى حدود المثالية ، أما الشعر الجديد فهو شعر الواقع والحياة » .

وفى مقال آخر أخذ يؤكد مسألة الحق والطبيعة والواقع فى الفن . ويقول « البساطة شرط لازم للعمل الفنى ، وهى بطبيعتها ترفض كل حلية خارجية . وتبرأ من التكلف ، وكل شىء فى الفن لا يعكس الحقيقة فهو زور وكذب ويدل على نقص فى ملكة الفنان ، وإنما الفن هو التعبير عن الحق ، والواقع وحده هو أسمى أنواع الحق ، وكل شىء خارج عنه – أى كل ما يخترعه المؤلف ويضيفه – هو أكذوبة وافتئات على الحق » .

وبعض الآراء التى دافع عنها بلنسكى أصبحت الآن من المسلمات والحقائق التى لا يختلف فيها اثنان ، ولكنها كانت فى عصره لا تزال فى معترك الجدل .

وهكذا استطاع بلنسكى أن ينقذ عصره من مبالغات المذهب الرومانتيكى . الذى يغلب الفكرة الرومانتيكية على الصورة ، وبذلك أصبح موجد المبدأ الذى أخذ به الكتاب الروسيون فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو المذهب الذى يحتم الواقعية ودراسة الحياة مع العناية بجمال الصورة ، وكثير من الآراء

التى ذكرها عن الفن لا تزال مرجعًا للنقاد ومقياساً يعتمد عليه فى التقدير الفنى والتقويم الأدبى .

ولا نزاع فى أن فكرة بلنسكى فى إخضاع الفن للحياة ووقفه على خدمتها فكرة نفعية تناقض ما ذهب إليه فى أول حياته الأدبية ، إذ حاول أن يسمو بالفن فوق الغايات والأهداف النفعية ، ومنطقة الفن عنده هى الجمال ، ومهما اختلف الفلاسفة فى تعريف الجمال ، وهل هو فى نفس الفنان أو هو فى خارج نفسه فإنه لا يتفق مع النظرية النفعية التى ذهب إليها بلنسكى فى المرحلة الأخيرة من مراحل تطوره الفكرى .

والظاهر أنه هو نفسه لم يفطن إلى التناقض بين تصوره للجمال وعده غرض الفن الوحيد وبين حاجات المدرسة الواقعية الجديدة فى الأدب الروسى المعاصر له وربما كان موته الباكر وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره قد أعجله عن مراجعة الفكرة ومحاولة استيفائها .

ومهما يكن من الأمر فإنه ترك للنقاد بعده محاولة التوفيق بين المبدأ النفعى فى الفن والتصور الجمالى الخالص للفن .